الباب السابع

التنويم المغناطيسى، والتحليل تحت تأثير التخدير
وجهاز كشف الكذب

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثامن عشر

التنويم المغناطيسى

يرجع تاريخ التنويم المغناطيسى إلى رجل يدعى فرانز مسمر Franz Mesmer عاش فى الفترة مابين عامى ١٧٣٤ - ١٨١٥ ، فقد نادى هذا الرجل بما سماه المغناطيسية الحيوانية ، إذ كان يعتقد أن هناك سائلا غامرا فى الجسم يتأثر بالكواكب، وأن هذا السائل له قطبان كقطبى المغناطيس فى الجسم ، أحدهما سالب والآخر موجب ، إذا اختل توازن هذين القطبين فى الجسم ظهرت الأعراض المرضية . وقد حاول مسمر شفاء مرضاه بتمرير قطعة من المغناطيس على مواضع الألم بعد اعطائهم جرعات من مزيج الحديد المقوى ، وعرفت طريقته بالطريقة المسمرية . وقد استرعت هذه الطريقة انتباه الأطباء فى فينا حيث كان يعمل مسمر فأثاروا ضده ، ونعتوه بالدجل والشعوذة ، فاضطر إلى الرحيل إلى فرنسا حيث حاول الدعوة لطريقته التى اجتذبت عدداً من المرضى إليه ، وقد نجح فعلا فى شفاء عدد كبير ، وتكونت هناك جمعية من تلاميذه ، وأسسوا عيادة لعلاج المرضى بهذه الطريقة . وكانت طريقتهم للعلاج جمعية ، إذ كان يوضع حوض كبير من خشب البلوط فى وسط الحجرة ملآن بالماء الذى يغمر فيه قطع الحديد والزجاج وعدد من الزجاجات التى ملأها مسمر بمغناطيسه الحيوانى ، وكان الحوض يغطى بغطاء خشبى تخرج من ثقوب فيه عمد حديدية ، يأخذ المريض بطرف أحدها ويضعه على موضع الداء ، ويجلس المرضى حول هذا الحوض فى صمت تام منصتين الى الموسيقى الهادئة التى تعزف لهم ، ثم يمر مسمر بين الفينة والفينة فى

رداء قرمزى على كل من هؤلاء المرضى ، مثبتا نظره فى أعينهم ، مارا بيده على أجسامهم لامسا العضو المصاب ، فكانت هذه الطريقة تجلب الشفاء كما شهد كثير من المرضى .

ولقد ذاع صيت هذه العيادة مما أثار أطباء فرنسا ، واضطر ملكها أن يعين لجنة من لافوازييه مكتشف الأوكسجين ، وجيلوتين مكتشف آلة الاعدام التى سميت باسمه ، وبنيامين فرانكلين الأمريكى الذى كان سفيراً لامريكا فى فرنسا ، فقرروا عدم صحة وجود ما يسمى بالسائل الحيوانى المغناطيسى ، وأن العلاج ماهو إلا وهم وخداع ، وأن هذه الطريقة دجل مضر . فكانت نتيجة ذلك أن أصيبت طريقة العلاج هذه بنكسه .

لاشك أن مسمر يعتبر مكتشفا للتنويم المغناطيسى الذى لم يدرك حقيقته هو نفسه . حقا أنه لم يصل إلى تنويم مرضاه بالمعنى الذى نفهمه عن التنويم اليوم ، إلا أنه كان يؤثر عليهم تأثيرا مماثلا . وقد ترك أمر اكتشاف التنويم المغناطيسى على حقيقته إلى زملائه ، فقد اكتشف أحدهم ـ عرضا ـ أن أحد مرضاه راح فى سبات عميق بتأثير حبل مدلى من شجرة ، فأثبت بذلك إمكان الاستغناء عن التأثير بعمود حديدى ، وإمكان إيجاد حالة النوم بطرق أخرى . وقد تمكن العلماء والأطباء بعد ذلك ومنذ حوالى ١٧٨٤ من اثبات أنه من الممكن تنويم المرضى لمدة طويلة ، وإجراء عمليات جراحية أثناء النوم . إلا أن التنويم المغناطيسى أصيب بنكسة أخرى نتيجة لاكتشاف الكلوروفورم وغيره من المخدرات التى يمكن الاستغناء بها عن التنويم لاجراء العمليات الجراحيه خاصة وأن التنويم لم ينجح مع كل الأفراد ، إذ ليس لدى كل فرد الاستعداد لأن ينام بتأثير هذه الطريقة . ومما ساعد على عدم نجاح هذه الطريقه ماشاع حولها من دجل ، فظلت فى خمود لايستغلها إلا الدجالون والعرافون حتى جاء شاركوت وبرنهايم الطبيبان

الفرنسيان الشهيران ، فبدآ فى استغلالها حوالى سنة ١٨٨٠ فى علاج حالات الهستيريا . وقد تلمذ فرويد لشاركوت وعرف منه أصول التنويم الذى استغله هو أيضا فى علاج حالات الهستيريا قبل مناداته بطريقة التحليل النفسى . ويرجع الفضل إلى هؤلاء وغيرهم فى دراسة التنويم المغناطيسى على أسس علمية وبيان فوائده العلاجية . وهذا ميدان يدور فيه البحث باهتمام فى كثير من بلدان العالم .

ويستغل التنويم المغناطيسى فى العلاج الآن فى أربع حالات هى :

١ — تنويم المريض مدة طويلة دون الإيحاء إليه أثناء النوم بشىء ، والفائدة العلاجية لذلك كفائدة النوم أو التخدير حيث يأخذ المريض نصيبه من الراحة والإسترخاء .

٢ — إكتشاف الخبرات المرة المكبوتة عند المريض وهى تلك التى يحول كبتها دون تذكرها ، ويؤدى التنويم إلى تسهيل استعادتها وتذكرها .

٣ — الإيحاء إلى المريض بما يتطلبه منه المعالج الذى يستغل معرفته لشخصية المريض فى الإيحاء .

٤ — التحليل النفسى أثناء النوم . وفى هذا جمع بين التنويم والتحليل ، إذ الثابت أن كثيرا من المرضى يعجزون عن التعبير عن انفعالاتهم ومشاكلهم لحرجهم من كشف أسرار يشعرون معها بالعار ، فيساعد التنويم على التحدث عن مثل هذه الخبرات دون حرج ، كما يساعد على سبر غور نفسية المريض والتعمق فيها .

ولا يعتبر التنويم طريقة مثلى للعلاج ، لأنه لا يسهل تنويم كل فرد ، إذ لا تزيد نسبة من يمكن التأثير عليهم وتنويمهم عن ٢٠٪ أو ٣٠٪ ، كما أن المعالج الذى يستغل الإيحاء تحت تأثير التنويم قد يجهل مكونات شخصية المريض

وأسباب مرضه الحقيقية التى تلزم معرفتها للعلاج الناجع ، هذا بالاضافة إلى أن سرعة العلاج لاتعنى انتهاء المرض تماما ، فاعادة الاتزان إلى حياة الفرد للتكيف السليم تحتاج إلى أن يتعلم المريض من الطرق والوسائل مايساعده على هذا التكيف وهذا يحتاج إلى وقت طويل فى كثير من الأحيان .

مشكلة التنويم وسلب الارادة :

تناول ماركيوز[1] هذه المشكلة بالتفصيل، لذلك سندعه يجيب لنا عن الأسئلة التالية: هل من الممكن تنويم الفرد ضد ارادته ؟ وهل من الممكن التأثير عليه للقيام بأى شىء بالايحاء تحت تأثير التنويم لايمكنه القيام به فى الظروف العادية ؟ وهل يمكن مثلا أن نقوم فتاة بالايحاء تحت تأثير التنويم بسلوك لاتقوم به فى الظروف العادية ؟ .

وقبل الاجابة على هذه الأسئلة يجب أن نضع فى الاعتبار ثلاث نقاط هامة . أولاها أن ينصب اهتمامنا على الفعل وهو أمر واضح لاعلى القصد لأن الاختبارات التى لدينا حاليا للكشف عن القصد لازالت متأخرة وفجة وتحتاج إلى التطوير إذا كنا نهدف إلى معرفة دوافع (مقاصد) الانسان . أما الأفعال فهى تمثل سلوكا ملموسا عيانيا يمكن ملاحظته ، فاذا تمسكنا بالأفعال تصبح المشاكل أقرب إلى الموضوعية ولاتعتمد فى تفسيرها على التخمينات ، وثانيتها : أن التنويم قد استخدم كبديل للتخدير فى العمليات الجراحية الكبرى وهذا قد يتخذ أساسا للقول بأن التنويم قد يحقق مالايمكن فى العادة توقعه . وثالثتها : أن كثيرا من المشاكل التى تثار حول التنويم تتعلق بمشكلة الجنس . والسبب فى ذلك هو أن الناحية الجنسية

---

1 - F. L. Marcuse, Hypnosis, Fact and Fiction, A. Pelican Book, 1959.

تقيم الثقافة عليها كثيرا من القيود الخلقية . غير أن الاتهام بالاغتصاب والاغتصاب الفعلي غالبا كما يعرف المحققون أمران مختلفان. فقد بين البحث أن ادعاء الاغتصاب تحت تأثير التنويم إدعاء باطل إما فى واقعة الاغتصاب أو واقعة التنويم أو فى كليهما. ولا يعنى هذا القول بأن الاغتصاب تحت تأثير التنويم أمر مستحيل ، ولكن المقصود هو أن فى كثير من حالات الاغتصاب لم يكن للتنويم فيها أى أساس من الصحة.

ولنا أن نتساءل الآن إذا كان من الممكن أن يتم تنويم الفرد ضد إرادته . إن الاعتقاد السائد هو أنه إذا كان الفرد قوى الارادة ، أو كان من المعارضين لخضوعه للتنويم فانه لا يمكن تنويمه . ولكن ما المقصود بالارادة وقوتها وما المقصود بالمعارضة .

إن مفهوم الارادة فى علم النفس حاليا مفهوم فقد مكانته ويفضل علماء النفس استبداله بمفهوم الرغبة أو الدافع . فاذا ما استخدمنا مفهوم الرغبة أو مفهوم الدافع نشأت لدينا مشكلة جديدة ، فهل نقصد بالدوافع الدوافع الشعورية أم اللاشعورية ، وحينئذ نجد وللأسف أن الدوافع الشعورية واللاشعورية للخضوع للتنويم غالبا ما تتعارض فى نفس الوقت وعند نفس الفرد . فاذا كان هناك على سبيل المثال شخص متشوق شعوريا للتنويم غير أنه من الحالات التى لا يمكن تنويمها فهو يوصف فى هذه الحالة بأنه راغب شعوريا وغير راغب لاشعوريا . وإذا كان هناك شخص غير راغب فى التنويم ثم وجد أن من السهل تنويمه بطريقة خاصة من طرق التنويم فهو يوصف بأنه غير راغب شعوريا وراغب لاشعوريا . وهذا التفسير تفسير غير علمى ، اذ يعطى عادة ببيان الأسباب التى أدت إلى النجاح فى تنويم فرد أو الفشل فى تنويمه بعد النجاح أو الفشل الفعلى . وليس هذا هو المطلوب انما المطلوب هو التنبؤ بخصائص الفرد التى يمكن منها معرفة امكانية نجاح التنويم معه من فشله قبل تنويمه ، والتفسير الذى يؤدى إلى التنبؤ بالنتائج فائدته العلمية

أكبر من التفسير الذى يعطى بعد التوصل اليها .

وتعنى مشكلة الارادة التى نتناولها هنا بالشرح نقطة أخرى عملية، هى أن الشخص الذى سوف يتم تنويمه راغب فى البقاء فى نفس الحجرة مع الاخصائى . فاذا لم تكن لديه الرغبة فى ذلك فسيكون من الصعب إن لم يكن من المستحيل تنويمه (هذا إذا كانت هذه أول مرة سيخضع فيها للتنويم ، لأنه من المعروف أنه إذا كان الفرد قد سبق تنويمه فليس من الضرورى أن يكون مع الأخصائى فى مكان واحد . إذ يكفى وهو على البعد اعطائه الاشارة المطلوبة لينام) . وهناك من الأفراد لأسباب لم تتضح بعد يبدو أنهم أكثر استعداد للتأثر بتكنيك معين دون غيره ، والتأثر بأخصائى معين دون غيره كذلك . فاذا كان الشخص راغبا فى البقاء فى نفس الحجرة مع الأخصائى ، وكان الأخصائى هو الأخصائى المناسب، واستخدم معه الأسلوب المناسب، فالاجابة على ما إذ كان الفرد سيتم تنويمه دون ارادته أم لا هى أنه سيتم تنويمه دون ارادته . وهناك من الأمثلة الكثيرة التى تبين أن هناك من الأفراد من تم تنويمهم دون ارادتهم .

المشكلة الخلقية :

لدينا الآن السؤال الثانى وهو ما إذا كان من الممكن التأثير على الفرد - رجلا كان أو امرأة - للقيام بفعل لا يمكنه القيام به فى الظروف العادية مما يتعارض مع معاييره الخلقية . هناك من الباحثين فى التنويم المغناطيسى من يقرر استحالة ذلك ، وهناك من يقرر امكانية حدوثه ، وفئة ثالثة ترى أن السؤال لا معنى له ، وفئة رابعة ترى أن الشخص تحت تأثير التنويم يزيد تمسكه بالمعايير الخلقية بشكل يزيد عما هو عليه فى حالة اليقظة .

ويجدر بنا قبل أن نجيب على هذا السؤال أن نقرر أن المعايير الخلقية ليست

بالجمود الذى تدعيه لهـــا . وما على المرء للتحقق من ذلك إلا التفكير فى سلوك الإنسان فى الحرب ليتبين أنه يمكن استدراجه والتضليل به ليقوم بالقتل ، أو استعراض نتائج كنزى عن السلوك الجنسى حتى يتحقق من أن الممارسة الفعلية شىء والأقوال شىء آخر . هذا بالإضافة إلى أنه توجد مدرسة فكرية تعتقد أن كل فرد لديه الاستعداد للقيام بالافعال المضادة للمجتمع وقادر عليها ، وأن التنويم قد يزيل العوائق التى تحول بينه وبين القيام بهـا . لذلك يجب علينا أن نضع مثل هذه الأمور فى الاعتبـار حين نتناول مشكلة الانحراف عن المعـايير الخلقية فى السلوك .

إن من يرون استحالة قيام الفرد تحت التنويم بفعل يناقض معاييره الخلقية يسوقون مثل الفتاة التى تم تنويمها تنويما عميقا أمام مجموعة من طلبة الطب الذكور، ونفذت ما أوحى به إليها فهلوست عن القتل والسرقة ، غير أنه لما طلب إليها أن تتجرد من ملابسها استيقظت فجأة . ويدلل هؤلاء أيضا على رأيهم بفشل أحد المنومين المشهورين فى التأثير على طلبته للقيام بالسرقة ، وكذلك بالشخص الذى قام تحت تأثير التنويم بطعن رجل بسكين من المطاط ، وطعن دمية لرجل بسكين حقيقية ، ولما طلب منه أن يطعن رجلا بسكين حقيقية استيقظ فجأة وعلينا الآن أن نتناول بعض العوامل التى يجب أن توضع فى الاعتبار فى تقييمنا المواقف السابقة التى تؤكد استحالة قيام الفرد بعمل يناقض معاييره الخلقية .

غير أن هذه الأمثلة مردود عليها إذ أن هناك نزعة لدى كثير من الاخصائيين إلى نشر نتائج التجارب التى تعضد وجهة نظرهم وتجاهل ما عداها . وإذا ما اقحموا حاولوا إيجاد تبريرات منطقية لاتقوم على أساس .

وأحسن مثل على تجاهل ما يتعارض ووجهة النظر الأخلاقية شعر مشهور لروبرت سيرفس . إذ يقص علينا قصة القسيس فى الخطوط الأمامية فى الحرب الذى اتجهت رصاصة إلى قلبه ولم تصبه ، فقد انقذه الانجيل الذى كان يحمله فوق صدره . وتنتشر القصة ، وترددها الصحافة ، ويقصها الكبار على الأطفال. لأنها دليل اثبات قيم على التدين والحياة الخلقية الكريمة . ويواصل سيرفس فى شعره سرد قصة المقامر الذى تتجه إلى قلبه الرصاصة ، وتنقذه أوراق الكوتشينة التى يحملها فى جيبه . لكن المقامرة شىء رديء فلن نردد هذه القصة ، ولن نقصها على أولادنا لأنها تناقض ما نحاول نشره من فضيله ، وستكون دليلا معارضا أو دليل نفى لما يجب أن يكون . فهب أن الفتاة فى المثل السابق قد تجردت من ملابسها أمام الطلبة ، فهل كنا نجرؤ على إعلان ذلك ، وفى هذا ما فيه من مناقضة للمعايير الخلقية ؟ إذا كان علينا أن نصل إلى تعميمات فعلينا أن نصل اليها من النتائج الايجابية والنتائج السلبية حتى يمكننا وزن الحقائق .

ويلجأ المؤكدون لاستحالة قيام الفرد تحت تأثير التنويم بما يتعارض ومعاييره الخلقية إلى استخدام المنطق لتأكيد رأيهم،فلو أن الفتاة قد تجردت من ملابسها أمام الطلبة لقالوا أن لديها أساسا نزعات لا أخلاقية ، وأن ما قامت به لايتعارض مع معاييرها الخلقية أو تكوين شخصيتها،وأن العمل الذى قامت به يتفق ورغباتها الداخلية ومثل هذا التفسير مرة أخرى تفسير تال لنتائج قد يصدق كما يصدق غيره من التفسيرات وقد لا يصدق . ألم تذكر أن هناك مدرسة فكرية تعتقد أن كل فرد لديه الاستعداد للقيام بالأفعال المضادة للمجتمع وقادر عليها .

فاذا أخذنا المثل الآخر عن فشل أحد الاخصائيين المهرة فى دفع تلاميذه على السرقة تحت تأثير التنويم ، فهناك من التجارب ما يبين أن غيره قد نجح فى ذلك.

ويرد هذا الاخصائى على ذلك بأن السبب فى نجاح غيره هو وعى طلبتهم بالضمانات الكافية لحمايتهم من العقوبة. أى أنهم كانوا يعرفون أنهم لن يساءلوا إذا ما اقترفوا أى فعل يوقعهم تحت طائلة القانون . وهذا القول مردود عليه . فهل كانت الحماية مضمونة مع غيره ولم تكن مضمونة معه ؟ ألم يكن طلبته على وعى أيضا بأنهم فى تجربة علمية وأنه لن يساء استغلالهم ؟ . وإذا كان من الممكن النجاح فى اقتراف مايتعارض مع القانون إذا وجدت الضمانات ، أليس فى مقدور كل اخصائى فى التنويم أن يوحى للنائم بالأمان والحماية ويدفعه إلى ارتكاب ما يخالف القانون بهذا الأمان وهذه الحماية ؟

كما أن الطريقة التى تستخدم فى التنويم لها أهميتها ، ففشل الاخصائى فى حث الفتاة على التجرد من ملابسها قد يعود إلى أن الطريقة التى استخدمها لم تكن مناسبة إذ أن طرق التنويم ثلاثة . تتميز الطريقة الأولى بالايحاء المباشر للنائم بالمطلوب ، وتتميز الثانية بقيام الاخصائى بشرح الموقف بكل تفاصيله للنائم بينما تتميز الثالثة باستخدام الهلوسة . والطرق الثلاث تستخدم فى العادة فى الموقف الواحد مع سيادة احداها . وفى ضوء معلوماتنا الحالية لايمكننا القول أى هذه الطرق تفضل الأخرى . وهنا نفرض أن أحد الاخصائيين حاول أن يوحى للنائم بقتل قطة ، فقد يطلب منه مباشرة اداء ذلك وبهذا يكون قد استخدم الطريقة الأولى . هب أنه يعرف أن النائم يحب الحيوانات الأليفة فقد يوحى إليه بأن القطة التى أمامه نمر (هلوسة) وأنها خطر وأن عضتها سم وتؤدى إلى الموت وأنها مقبلة عليه لتهاجمه ، ودفاعا عن نفسه يجب عليه أن يقتلها بالرصاص . وحينئذ يكون الاخصائى قد استخدم الطريقة الثالثة . وإذا كان قد وصف الموقف وصفا دقيقا بكل تفاصيله فقد يقال أنه استخدم ايضا الطريقة الثانية . وهكذا فى مثل هذا الموقف قد تنجح طريقة أو اكثر من طريقة فى الوصول إلى النتيجة المرجوة .

فبدلا من استخدام الطريقة المباشرة مع الفتاة وطلب تجردها من ملابسها كان من الممكن أن يوحى الاخصائى إليها بأن الوقت ليل ، وأنها بمفردها ، وأنها وحدها ، وأنها تستعد للذهاب إلى النوم ، وأنها ستخلع ملابسها لتذهب إلى السرير مستخدما الاخصائى بذلك الطريقة الثانية والثالثة فلعله كان ينجح فيما فشل فيه .

والخلاصة أن الفرد من الممكن أن يتم تنويمه ضد ارادته ، ومن الممكن تحت شروط معينة دفعه إلى إرتكاب ما يتعارض مع القانون أو يتعارض مع معاييره الخلقية . إن من ينادون بغير هذا الرأى يسوقون الأدلة الايجابية على رأيهم ويتجاهلون الأدلة السلبية التى تناقضها ، كما أن المنطق الذى يفسرون به النتائج التى توصل اليها غيرهم وتناقض رأيهم منطق غير سليم تال للنتائج ولا يساعد على النفوذ ، كما أن فشلهم فى التوصل إلى النتائج بطريقة معينة لا يعنى أن طريقة أخرى لا يمكن أن تنجح فيما فشلوا فيه .

تحديد المسئولية :

لنا ان نتساءل الآن فى مثل قتل القطة الذى سقناه ، من يكون المسئول؟ هل هو الاخصائى أم النائم . إن الحقيقة الموضوعية هى أن النائم هو القاتل . وإذا كان لابد من تطبيق القانون وعقاب الجانى فان الأدلة المادية قد تدين النائم لأنه هو الذى قام بالفعل بينما الأخصائى قد يطلق سراحه علما بأنه هو الذى أوعز بالقتل . فى احدى القضايا المشهورة فى أمريكا برىء القاتل لأنه أعتبر (غير مسئول مع أنه مذنب) وأعدم الاخصائى (لأنه أعتبر مسئولا مع أنه غير مذنب) وتعتبر هذه الحالة من الحالات النادرة لان القانون عادة يأخذ بالدليل المادى .